

أولادنا

الأربعة الذين سرقوا الزمن

بقلم

عبد التواب يوسف

دار المعارف

الأربعة
الذين سرقوا الزمن

أولادنا

(٢٨)

الأربعة الذين سرقوا الزمن

بقلم

عبد التواب يوسف

الطبعة الأولى

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

١

عندما طرق « خالد » باب المدرسة – لوصوله متأخراً – انفرج الباب قليلاً ، وأطل من ورائه رأس « العم طه » البواب ، ونظر إليه طويلاً ، قبل أن يقول لخالد :

– دخول أولياء الأمور بعد الساعة العاشرة !

– أولياء الأمور ؟ !

هتف « خالد » بهذه العبارة بدهشة كبيرة ، وظن أن « العم طه » يداعبه لأنه لم يصل المدرسة مع زملائه ، لكن صوت الرجل لم يكن فيه أى لون من ألوان المداعبة ، بل كان جادًّا كل الجد وهو ينطق بكلماته ، لذلك قال « خالد » :

– أنا « خالد » . .

هتف « العم طه » : « خالد » ؟ ! هل هذا معقول ؟ !

– أنا فى الصف الثالث فصل ثان . .

ضحك البواب مرة أخرى ، وقال له :

– قد تكون « جَدُّ » خالد ، أو والده . . أرجو أن تنظر يا سيدى

إلى وجهك فى المرآة لتعرف صدق ما أقول . . ليتك تسمع صوتك . .

مضى « خالد » مبتعدًا عن باب المدرسة باحثاً عن مرآة قريبة ، وكان يحدث نفسه ، فيشعر أن صوته مختلف كل الاختلاف عما تعوده ، ووصل إلى متجر قريب ، فى نافذة معروضاته – الفترينة – مرآة كبيرة ، وما إن تطلع إلى شكله فيها حتى أُصيب بذهول شديد . . لقد رأى أنه قد تحول إلى رجل عجوز نحيل ، شاحب الوجه ، له لحية بيضاء طويلة وشارب قصير . ونظر إلى جبينه ليجده مليئاً بالغضون ، ورأى خطوطاً عميقة تمتد فوق حاجبيه الرماديين ، ومن حول عينيه هالة سوداء .

ارتعش « خالد » ولم يستطع أن يستمر فى رؤية صورته فى المرآة ، واضطر إلى مغادرة المكان ، وهو يحدث نفسه بذات الصوت الأجش العجوز . .

– ماذا حدث ؟ ! ما أغرب هذا الذى جرى . . هل أنا فى حلم ؟

راح « خالد » يدْعَك عينيه ، ويلتفت يميناً ويسارًا ليؤكد لنفسه أنه مستيقظ ، وأنه يتحركَ ويسير فى الشارع . . إنه يرى كل ما حوله . . السيارات تحمل أطفالاً – مثله بالأمس – إلى مدارسهم ، وهناك رجال ونساء ينطلقون إلى أعمالهم مسرعين . . البعض يسير على

قدميه فى عجل ، والبعض يركب سيارات خاصة ، وعامة . . ورأى شابًّا يركب دراجة ويسرع بها بين الزحام ، وعندما نزل من على الرصيف صاح فيه الشاب :

- يا رجل يا « عجوز » ، التزم بالسير على الطوار ! . .

وانطلق الشاب قبل أن يرد عليه « خالد » ، الذى مضى فى ذهول يبحث عن مرآة أخرى ، فإنه لم يصدق ما رآه . . وقد عثر فى طريقه على أكثر من مرآة ، وأطلت عليه الصورة نفسها التى رآها عقب لقائه ببواب المدرسة . . وخطرت فى باله فكرة . . لماذا لا يعود إلى البيت ؟ !

إن والدته لابد وأن تتعرف عليه ، وتحاول أن تساعده فى إدراك ما حدث ، وفى تفسير ما جرى ، فلم يحدث فى تاريخ الإنسانية أن نام صبى صغير فى فراشه ليستيقظ فى اليوم التالى رجلاً عجوزًا . . آه . . لقد سمع بقصة من هذا اللون . . قصة « أصحاب الكهف » أيكون منهم ؟ هذا غير معقول . . إنها قصة تاريخية ، جاء ذكرها فى القرآن الكريم . . ولا يمكن أن تتكرر . . وعجز عن الفهم ، وكف عن التفكير ، وانطلق تجاه باب بيته ، وطرقه لتفتحه أمه ، ونظرت إليه دون أن تنطق بكلمة واحدة ، وبقى هو صامتًا ، وكاد ينفجر بالبكاء وصوت أمه يترامى إليه ، تسأله . .

– من تريد يا سيدى ؟ !

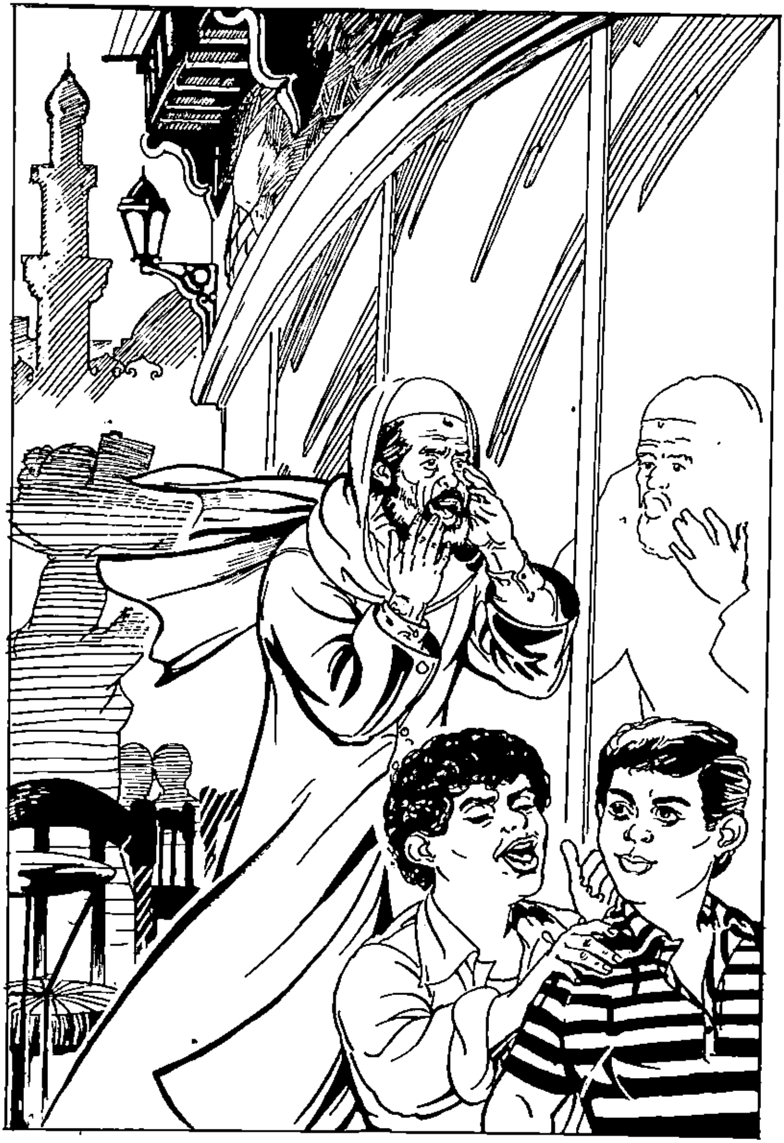
همس « خالد » فى صوت خفيض :

– ألا تعرفيننى ؟ !

ردت الأم : لا ، إننى لا أعرفك . . معذرة . .

أدار « خالد » ظهره للبيت ، ومضى يسير فى بطء وتثاقل . . وراح يفكر من جديد . . ربما لم أعد « خالد » فعلاً ، أنا الآن لست هو . . أعتقد أننى مجرد رجل عجوز وحيد ، بلا أم ، وبلا أصدقاء . . تُرَى كيف تمضى بى الحياة ؟ . . إن الرجال الكبار عادة يكونون أطباء أو علماء ، مدرسين أو مهندسين ، ولكننى لم أتعلم شيئًا لكى أكون واحدًا من هؤلاء . . إن كل ما وصلت إليه الصف الثالث فصل ثان . . إننى لم أتعلم كثيرًا . . وكانت درجاتى سيئة فى العام الدراسى الأخير . كنت دائمًا « الأخير » فى الفصل ، ولم يكن المدرسون راضين عنى بعد أن كنت مجدًّا ذكيًّا . . بل يرون أننى أصبحت تلميذًا بليدًا كسولاً . . حتى فى الموسيقى والأناشيد كنت أحصل على أقل الدرجات . . وكنت أقول لنفسى :

– لا تقلق يا « خالد » ، مازال أمامك وقت طويل ، سوف تلحق بزملائك وتعوض ما فاتك ، وسيتم ذلك خلال الأسبوع القادم . .



وفى الأسبوع التالى يكرر « خالد » على نفسه ذات العبارات والكلمات . . دون أى تقدم أو تغيير . . وها هو ذا الآن يواجه أمرًا غريبًا عجيبًا ، لعل أحدًا لم يعرفه من قبل سوى أهل الكهف . . وتساءل :

– تُرَى ، هل نمت خمسين عاماً مثلاً ؟

راح يفكر وهو يسير فى خطى بطيئة ، وكان وقع أقدامه حزيناً ، رتيباً ، وهو يقتفى أثر صبى يحمل جهازاً غريباً ، وكان يشعر شعوراً عميقاً بأن لهذا الصبى دخل فيما حدث له من تغير ، لذلك مضى وراءه يتبعه ، ولا يدعه يبتعد عن عينيه . . . وكان غارقاً فى أفكاره ، غير قادر على الوصول إلى فهم لما حدث أو تفسير له ، غير قادر على أن يعرف مصيره ، وماذا سيصنع بنفسه وحياته . . ولم يلحظ « خالد » خلال سيره ، أنه قد غادر المدينة ، وخَلَّفها وراءه ، وأنه قد أصبح يمضى وسط حقول خضراء ، لم يسبق له أن شاهدها من قبل ، وراح يسير ، إلى أن هبط عليه ظلام الليل . . وهو وراء الصبى ، صاحب الجهاز الغريب . .

وبدأ « خالد » يشعر بالتعب والجوع ، ولكنه مضى يفكر ، ويتذكر . .

لقد كان واحدًا من المغامرين الأربعة . . أين هم الآن ؟ أين

« طارق » ؟ وأين « فادية » أو (فلفلة) . . و« مشيرة » ؟ . . وأين صديقنا الكلب « فهد » ؟ ! . . كان يجب أن أمر بهم لكي أراهم ، قبل أن أغادر المدينة . . ولكن هل كان من المعقول أن يلقوني وأنا على هذه الصورة الغريبة ؟ ! ! ثم . . ماذا يكون موقفهم لو أنهم قابلوني وأنا بهذا الشكل ؟ . .

كانت هناك عشرات الأسئلة ، يلقيها على نفسه ولا يجد لها جواباً ، وضاقت به الدنيا للحظات قصيرة ، ولكن فكرة طريفة ومضت في رأسه . . ألا يستطيع أن يستفيد من عشرات المغامرات التي خاضها ؟ ألا تساعده في أن يخرج من هذا المأزق ، ويستعيد العمر الذي كان يعيش فيه ، سعيداً به ؟ ألا تعاونه في أن يتعرف إلى سر ما حدث ؟ ! . .

وتنبه إلى أنه يسير على قدميه منذ الصباح ، وأنه لم يذق طعاماً ولا شراباً طيلة اليوم ، وتلفت حوله يبحث عن المكان الذي وصل إليه . . من خلف الصبي ، فلم يتبين شيئاً ، فالظلام كان مطبقاً على الدنيا ، والحقول شاسعة ممتدة يميناً ويساراً ، والنجوم في السماء لا تكاد تلمع حتى تختفي تحت طيات السحب الداكنة . . وظهر من بعيد ضوء صغير يبدو كأنما ينبعث من نافذة ، فمضى نحوه وراء الصبي ، سعياً من أجل طعام أو إنسان يؤنس به وحدته ، ويتخلص من وحشته ، ولم

يكن من الممكن أن يقضى ما تبقى له من العمر سيرًا على الأقدام . . وكان لابد من أن يستريح قليلاً بعد هذه الرحلة التى امتدت يومًا ، هو فيما يرى يزيد على خمسين عامًا !

وعندما اقترب من مصدر الضوء ، اكتشف أنه صادر عن بيت أبيض صغير ، يختفى بين أشجار حديقة وارفة الظلال ، وسط مساحات شاسعة من الحقول والمزروعات والحدائق ، فمضى نحوه فى خطوات هادئة وئيدة ، وهو يحاول أن يخترق بعينيه حجب الظلام الذى يحدق به ، وتسلل من الباب فلم يجد أحداً ، فسار على أطراف أصابعه حتى النافذة ، وتمكن من أن يتعلق بحافتها ، ونجح فى أن يلقى بنظرة على ما يجرى بداخل الغرفة . . كانت هناك منضدة صغيرة ، عليها مصباح ضئيل ، يصدر عنه ضوء شاحب ، وحول المائدة رأى أربعة مقاعد بلا مساند ، وعلى الحائط كانت هناك أعجب ساعة شهدها فى حياته ، وكان لها بندول يتأرجح ذات اليمين وذات اليسار ، ويُسمَع له صوت عال :

– تك توك . . تك توك . . تك توك . .

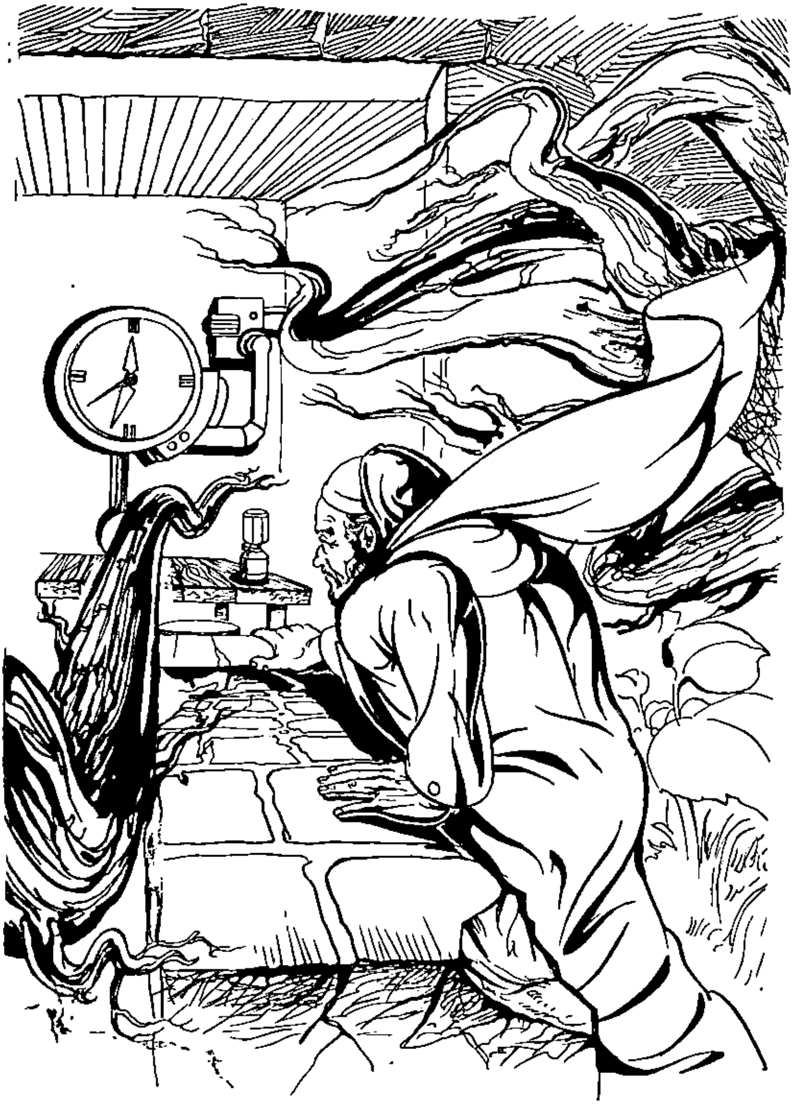
وفى جانب من الغرفة كانت هناك كمية كبيرة من قش الأرز ، فدار حول البيت إلى أن عثر على الباب ، فدخل فى هدوء وألقى بنفسه فوق كومة القش ، لعله يحظى بشىء من الراحة . . وما إن استقر به

المقام حتى أحس بيأس مطبق ، فراح يبكى بدموع غزيرة لفترة لا يعرفها ، ثم جفف دموعه بلحيته البيضاء ، والساعة تدق . . تدق . . تدق . .

– تك توك . . تك توك . . تك توك . .

كان واضحاً أن الصبى قد وصل به إلى هذا المكان ، ولكنه لا يدرى أين اختفى هذا الصبى . . وراح « خالد » فى سبات عميق .

* * *



٢

استيقظ « خالد » بعد مرور بعض الوقت ، فوجد أن المصباح يتوهج بالنور ، وشاهد من حول المائدة فتاتين وولدين – فى مثل عمره تقريباً ، قبل أن يدب إليه الكبر – وكان الصبى الذى اقتفى أثره واحدًا من هذين الولدين . وكانت بين أيديهم كمية ضخمة من عملات نحاسية ، وبجانبها أوراق كثيرة ، وترامى حديثهم إلى « خالد » ، حيث يرقد وسط كومة قش الأرز ، دون حركة أو صوت . . وسمع أحدهم يقول :

سنتان زائد ثلاث سنوات ، زائد خمس سنوات . . زائد سبع : المجموع يساوى سبع عشرة سنة . . هذه لك . .

وسأله آخر : وكم أخذت أنت ؟ !

القدر نفسه من السنوات . .

ودهش « خالد » لهؤلاء الأولاد والبنات ، فقد كانوا خلال حساباتهم ، يغنون أغانى قديمة عن سيد درويش ، وكامل الخلعى ، والمنيلاوى ويهمسون كأنهم رجال عواجيز ، وتساءل عن السر الذى

دفع بهم إلى هذا المكان البعيد المنعزل ، وعن سبب وجودهم . . وكان « خالد » خلال هذا الوقت لا يتحرك قط ، بل حبس أنفاسه التى تتردد فى صدره ، حتى لا تصل إليهم ، ومن الواضح أنهم لم يتنبهوا إليه حين دخلوا إلى الغرفة ، فقد اختفى تماماً فى كومة القش ، حتى غطته عن عيونهم ، وعندما استيقظ لم تبدر منه أية حركة تلفت نظرهم إليه ، أو تكشف لهم عن وجوده فى ذات الغرفة . . وكان « خالد » خلال رقدته يحاول أن يستمع إلى كل عبارة وكل كلمة ، بل تمنى لو أنه كان قادرًا على أن يرقبهم بعينيه . ومن الواضح أن مغامراته الكثيرة أكسبته القدرة على مثل هذه الأمور . . أن يكتم أنفاسه ، وأن يرى من كل اتجاه ،.وأن يسمع دبيب النمل . . ولم يكن « خالد » فى حاجة إلى وقت طويل ، لكى يدرك أنه ليس أمام أطفال حقيقيين .

إن الفتاتين الجالستين حول المنضدة ليستا صغيرتين ، وكذلك الولدين . . لقد اكتشف بسرعة أنه أمام عصابة استطاعت أن تصل إلى سر رهيب ، واستنتج أنهم نجحوا فى سرقة سنين العمر من بعض هؤلاء الذين يهدرون وقتهم هباء ، ويضيعونه فيما لا طائل منه . . وهم بذلك يحولون الفتيان والفتيات إلى نساء عجائز ، إلى رجال بلغوا من السن عتيًّا – كما يقولون – وكما أصبح «خالد» « شخصيًّا .

وكانت العصابة فى سعى دائم ، من وراء الفتيات والفتيان الذين

يبددون أوقاتهم وأعمارهم . ويبدو أن « خالدًا » خلال الإجازة الصيفية الأخيرة ، أضاع الكثير من الوقت بحثاً عن المغامرات ، هو وزملاؤه المغامرون الأربعة ، فهل يا ترى استطاعت العصابة أن تصل إلى أحد من باقى المغامرين الأربعة ؟ . . ثم ماذا عن الكلب (فهد) ؟ ! . .

وفى هذه اللحظة بالذات ، ارتفع نباح كلب فى الحديقة ؛ فارتجف « خالد » فى مكانه ، وخاف أن يدخل الكلب إلى الغرفة ، فيكتشف وجوده بقدرته الفائقة على الشم ، ولكن باب الغرفة كان مغلقاً . . فاستراح « خالد » لذلك كثيرًا ، ولكنه كان مازال معرضًا فى أية لحظة لاكتشاف أمره . . وأقلقه هذا ، بقدر ما أقلقه ما وصل إليه من معلومات واستنتاجات ، تمنى لو لم تكن كلها صحيحة ، فإنه لم يكن يود أن يتحول المغامرون الأربعة إلى العواجيز الأربعة ! ، إنه لم يكن على ثقة من أن هذا قد حدث ، إلا أنه يتصوره حقيقة واقعة ، وسرح وراء أفكاره وراح يتخيل شكل « طارق » . . و « فادية » . . و « مشيرة » . . والكلب (فهد) ، وعند ذلك كاد يضحك ، وغالب نفسه ، واكتفى بابتسامة صغيرة على شفتيه . .

إن كل المغامرات السابقة . . كانت تتعلق بحوادث بعيدة عن المغامرين الأربعة ، كأن يكتشفوا لصًّا أو عصابة متآمرة ، لكن المشكلة

اليوم تتعلق بأشخاصهم . . وتساءل « خالد » :

– تُرَى أين هم الآن ؟ هل تحولوا فعلاً إلى « عواجيز » مثله ؟ أو مازالوا كما هم يتمتعون بحياتهم العادية ، ويبحثون عن مغامرة جديدة ؟ ! .

كانت كل هذه الأسئلة بلا إجابة . . إنه يتمنى لأصدقائه الخير ، ولا يريد لهم محنة كالتى وقع فيها ، وهو فى الوقت ذاته يرجو أن تكون المسألة مجرد (مغامرة) ، يخوضونها أو (لغز) يحلونه . . وتعود الأمور إلى ما كانت عليه . . ولكن عينه وقعت على لحيته البيضاء الطويلة ، وعلى هؤلاء الجالسين حول المنضدة يوزعون على أنفسهم « السنين » ، التى نهبوها والزمن الذى سرقوه ، ويستعدون للتمتع باللعب والرياضة بالنزهة والمغامرة ، بالحلوى والشيكولاتة . . إنهم ولا شك سيقضون أوقاتاً غاية فى المتعة والظرف ، فى حين يعيش المغامرون الأربعة ، و(فهد) فى سن متأخرة ، غير قادرين على الجرى أو المشى ، وسيعانون من أمراض الشيخوخة ، وسيحتاج كل منهم إلى (طاقم) أسنان ، وعصا يتوكأ عليها وممرضة تعطيه الدواء ، و . . .

وفى اللحظة التى كانت هذه الأفكار والخواطر ترد على ذهن « خالد » ، غادر واحد من أفراد العصابة مقعده ، يحمل فى يده (عدادًا) كالذى يتعلم عليه الأطفال ، الأرقام . . واتجه ناحية الساعة

المعلقة على الحائط . . وكان يبدو على هذا الشخص أنه زعيم العصابة . . . وامتدت يده إلى عقارب الساعة يديرها ، وجذب إليه الثقل المعلق بالبندول ، ثم راح يتسمع إلى دقات الساعة ويرقب حركة البندول ، وهو يروح ويجيء . . وبدأ بعد ذلك يعد بعض الأرقام على (العداد) الذى فى يده ، إلى أن دقت الساعة منتصف الليل ، فحرَّك حبات العداد ، ثم التفت إلى زملائه وقال فى صوت هامس :

– إنكم تعلمون ، أيها الأصدقاء ، أن الأطفال الذين نجحنا فى تحويلهم إلى عجائز ، يستطيعون أن يستعيدوا أعمارهم الحقيقية مرة أخرى . .

هتف أعضاء العصابة : كيف ؟

أجاب : سأقول لكم بعد لحظات ، لكن من المهم أن تتأكدوا من أن أحداً لا يستمع إلينا ، فإن ما سأذكره فى منتهى الخطورة والأهمية ، ويجب أن نحفظه جميعاً بكل سرية ، حتى لا نفقد كل شيء . . هيا بنا . .

– إلى أين ؟ !

– علينا أن نفتش الحديقة ، فقد يتسلل إليها من يتجسس علينا . .

خرج الجميع إلى الحديقة ، وتجولوا فى أنحائها ، و« خالد » قابع فى

مكانه وسط قش الأرز ، وكتم أنفاسه لحظات ، واستبد به القلق ، واشتد حينما عادوا بعد قليل ، وأغلقوا الباب بالمفتاح ، ثم أمسك الزعيم بعصا طويلة ، وراح يدسها وسط كومة القش ، ويحركها قرب المكان الذى اختفى فيه « خالد » . . ولكن المصباح كان يرسل ضوءًا قليلاً شاحبًا فى ركن الغرفة ، لذلك لم يروا « خالدًا » حينما اختفى . . وعند ذلك ناداهم زعيمهم قائلاً :

– والآن تعالوا . . اقتربوا منى . .

ثم انخفض صوته حتى صار همسًا خافتًا ، وأضاف :

– إن عالمنا هذا قد صُنِع بشكل يستطيع معه كل واحد من الأحياء أن ينقذ نفسه من الدماء ، إذا ما حاول الإنسان ذلك بكل ما فى طاقته وما فى مقدوره . . إن الفتاتين ، والفتيين : الذين أصبحوا عجائز لو اجتمعوا فى هذا المكان غدًا ، فى منتصف الليل تمامًا ، وأداروا عقارب هذه الساعة ٧٧ مرة ، فإنهم سوف يعودون كما كانوا . . مجرد فتيات وفتيان . . وهم بذلك يحكمون علينا بالإعدام ، فنفقد حياتنا !

وساد الصمت عميقاً رهيباً ، قطعته واحدة من الفتاتين قائلة :

– ولكن كيف يمكنهم أن يجدوا السبيل إلى ما يجب عمله ؟ وكيف يصلون إلى هذا المكان الغريب ؟ !

ابتسم الفتى الآخر ، وقال :

– وحتى لو عرفوا السبيل ، ووصلوا إلى هذا المكان ، فإنهم سوف يصلون متأخرين كعادتهم . . دقيقة أو دقيقتين !

ضحكت الفتاة الثانية ، وهى تضيف :

– ثم إنهم يعرفون كيف يعدون . . من واحد إلى سبعة وسبعين !

قال رئيس « العصابة » : مهما يكن فيجب علينا أن نفتح أعيننا وآذاننا جيدًا . . فإن الأولاد إذا استطاعوا أن يصلوا إلى عقارب هذه الساعة ، ولمسها واحد منهم فإننا سنجمد فى أماكننا ، ولن نتمكن من أن نتحرك خطوة واحدة . . هيا بنا ، لا تضيعوا دقيقة واحدة ، إلى العمل ، إلى العمل . .

أخفى أفراد « العصابة » العداد الذى يستعينون به فى عد السنين وتوزيعهم ، وراحوا يجرون ويقفزون كالأطفال ، فرحين سعداء بعمرهم الذى عاد إليهم ، وبالحياة الجديدة التى رجعت فى ثوب قشيب . . كانوا كالطيور والفراشات ، يرفرفون فى ابتهاج ، ويغنون فى صوت حلو ، والدنيا لا تكاد تسعهم . .

قال رئيس « العصابة » : سألعب كرة قدم اليوم ، مع الصف الثالث !

وقالت فتاة : وأنا سألعب (الحجلة) و (نط الحبل) . .

ابتسمت زميلتها وقالت : أما أنا فسأزين شعرى بشريط أحمر ، ثم أستأجر دراجة من المدينة ، وأجرى بها إلى هنا . .

قال الفتى الرابع : تصوروا . . ما أجمل الحياة . . من كان يتصور أننا بعد سن الستين ، ننعم بهذه الألعاب الجميلة ، وهذه الـ . .

قاطعه رئيس « العصابة » قائلاً : كف عن ترديد مثل هذه العبارات ، فإنك قد تخطئ ، وتقول شيئاً أمام الآخرين ، ويعلم الناس بحكايتنا . .

ضحك الفتى وهمس : أنا أتحدث أمام أصحابى ، وأحبائى ، أبناء جيلى . . الذين لم يتجاوز أحدهم الخامسة عشرة من عمره ؟

ابتسمت الفتاة وقالت : سأتقدم للحصول على الإعدادية ؟ !

قالت زميلتها : وسيظهر عنك خبر فى الصحف : تحصل على الإعدادية وهى فى السبعين !

غضبت الفتاة وقالت : لم أكن فى السبعين . . كنت فى التاسعة والستين قبل . . .

صاح فيهم الرئيس : كفى . . وهيا نلعب . . ونفرح . . ونضحك . . ونسعد . . وجروا . . ومن ورائهم كلبهم الصغير . .

* * *



٣

انتظر « خالد » حتى ابتعد صوت وقع أقدامهم ، فنهض من مكانه وسط كومة القش ، وراح يحرك يديه وذراعيه وجسمه فى حركات رياضية ، يريد بها استعادة نشاطه ، ونفض عنه ما قد علق به من القش والتراب ، وانطلق يجرى إلى خارج البيت بأسرع ما يستطيع ، وكان خلال هذا العدو السريع ، يختفى وراء الشجيرات التى يلقاها على الطريق ، ويتستر بأعواد الفروع هنا وهناك ، لكى يتأكد من أن أحداً لا يقتفى أثره . . فقد علمته مغامراته السابقة أن يكون يقظاً وحذراً . . وهو اليوم أشد احتياجاً للحذر ، فالقضية تتعلق بسنين عمره وحياته ، التى سرقت منه فى غفلة . . ووصل إلى المدينة وهو يلهث من التعب ، وقد تصبب جبينه المغضن بالعرق ، وتسارعت أنفاسه ، لكن الوقت كان أضيق من أن يتسع للاستراحة ، إذ كان عليه أن يجد زميله : « طارق » وزميلتيه « فادية » أو « فلفلة » و « مشيرة » . . والكلب (فهد) . ولم يكن من السهل عليه ذلك ، فإنه لا يستطيع أن يتصور أشكالهم ، وقد بلغوا السبعين من عمرهم .

وصل « خالد » المدينة وهى ما زالت نائمة . . أعمدة النور تضىء الشوارع الخالية ، فى حين كانت النوافذ كلها مغلقة ، ومظلمة . . ولكن واحداً من رجال الشرطة الساهرين على الأمن كان يقف عند ناصية الطريق ، يهتف :

– مَنْ هناك ؟ !

إنه لم يكن يريد ردًّا على سؤاله ، فقط كان يريد أن يعلن لضابط الدورية ، وزملائه . . أنه يقظ ، صاح ، فى حين وقع أقدامه يرن على الطريق فى هدوء الليل . . وارتفع صوت أذان الفجر من مسجد قريب ، ورأى « خالد » أن يدخل لكى يتوضأ ويصلى الفجر ، ويدعو الله أن يعينه وزملاءه المغامرين على استرداد حقهم السليب ، وأن يسترجعوا سنين عمرهم التى سرقت منهم . .

خرج « خالد » من المسجد صافى القلب والذهن ، وقد غمر نفسه الارتياح ، وانطلق وخيوط نور الصباح تتسلل من الأفق البعيد ، وترام قديم بدأ يتحرك ، والتقطت عيناه اثنين من باعة اللبن على دراجتيهما ، وعربة تحمل كمية ضخمة من الخضروات . . وشعر أنه بحاجة إلى كوب من اللبن ، وكوب من الشاى الدافئ ، لكن من أين يحصل على هذا ؟ ! . . كان فى عجلة شديدة ، يريد أن يبحث عن زملائه وهو لا يدرى إذا ماكانوا فى بيوتهم أو لا . . . و . .

وفجأة لمح « خالد » امرأة عجوز تخرج من شارع جانبى ، تحمل فى يدها سلة كبيرة . . فجرى نحوها ، واتجه إليها قائلاً :

– قولى لى يا جَدَّتى ، هل أنت فى الصف الثالث الإعدادى ؟

هتفت السيدة قائلة : ماذا ؟ ماذا تقول ؟

التقط « خالد » أنفاسه وهو يقول : الست « مشيرة » ؟ أو أنت « فادية » ؟

صرخت فيه المرأة : ما هذه الأسماء التى تقولها أيها الرجل العجوز . . مناخـ . . . وكان واضحاً أنها سوف تقول : إن « مناخيره زى الكوز » ، ولكنها استدركت ، فهى لا تريد أن تستهل يومها بشجار مع رجل مثله ، يخرج إلى الشوارع فى الفجر ، ربما لا يكون قد عاد لبيته بعد ، قد يكون ممن يسهرون طوال الليل وينامون النهار ، ومن الأفضل الابتعاد عنه . . وربما كان رجلاً طيباً خرج للصلاة ، وهو لا يستحق منها الشجار ، لذلك نظرت إليه فى دهشة ، وهى لا تكاد تفهم شيئاً مما يقوله . . لكنها خطت إلى الأمام نحوه ، وطوحت بالسلة التى فى يدها تريد أن تضربه بها ، فتفاداها فى رشاقة ، وجرى ، وهى تشيعه بضحكة صافية ، متسائلة :

– أنا فى الصف الثالث الإعدادى . . ياليت هذا صحيحاً !

كانت المدينة قد بدأت تستيقظ ، وراحت السيارات العامة تنطلق

فى شوارعها ، والناس يتجهون إلى أعمالهم . . كان كل شىء قد بدأ ينبض بالحركة والحياة . .

لم يكن « خالد » يبدأ يومه مبكراً على هذه الصورة الفريدة ، التى لم يعهدها من قبل ، ولكنه أدرك من سير الناس بسرعة أنهم لا يريدون أن يضيعوا دقيقة واحدة . . إن بعضهم من عمال « الورديات » الصباحية ، ويجب أن يتسلم مكان زميل له سهر طوال الليل ، وأصبح فى أشد الحاجة إلى قسط من الراحة . . وبعضهم يريد أن يهيئ المدارس والمكاتب للعمل ، ونظر « خالد » إلى الدنيا من حوله . . ما أعجبها فى الصباح الباكر : أناس تركوا فراشهم الوثير ، ليستهلوا يومهم فى هذه الساعة ليكسبوا بعض الوقت ، وهم يسرعون بشكل غريب . . هذا ليستقلّ سيارة عامة ، وذلك مرتبط بموعد قطار ذهب إليه سائقه قبله ، وهكذا . . فكَّر « خالد » فى أن يتجه إلى بيت « طارق » ، فمضى فى الشارع الرئيسى للمدينة ، قرب الفندق الكبير ، ورأى على الرصيف المقابل مجموعة من النساء والرجال العجائز ، فنظر إليهم فى اهتمام كبير ، يريد أن يعرف إذا ما كانوا كباراً فى السن بحق ، أم هم من الفتيان والفتيات ، وقد سُرِقت أعمارهم مثله ، غير أنه لم يستطع أن يجزم بشىء ، فسار فى طريقه وهو يتلفت إليهم بين الحين والآخر ، إلى أن اصطدم برجل عجوز ، يحمل حقيبة كتب – يبدو أنه

مدرس – واعتذر له « خالد » بسرعة ، وانحرف عن الطريق حتى لا يصطدم برجل آخر له لحية طويلة ، وشعر رأسه كثيف ، إنه فنان . . ومرت كالبرق فى هذه اللحظة سيارة الأطفال الحمراء ، لا تريد أن تضيع ثانية واحدة ، وعلى إثرها أقبلت سيارة الإسعاف بالسرعة نفسها . . وكان واضحاً أن ثانية واحدة لها أهميتها فى مكافحة الحريق ، أو إنقاذ حياة مصاب . . إن كل شىء على الطريق يتحدث – بلا كلمات – عن أهمية الوقت والزمن ، حتى مشكلته هو الشخصية بل محنته ، تكشف عن خطورة هذه القضية . . إن من قال : « إن الوقت من ذهب » لم يكن صادقاً ، فوقت الإنسان على هذه الأرض هو حياته ، والحياة أغلى من كل ذهب الدنيا . .

سار « خالد » إلى مدرسة « طارق » صديقه . . كان الأولاد يدخلون من بابها فرحين سعداء ، وراح يتصفح وجوههم ، وكان يريد أن يسألهم عن « طارق » لولا أنه خشى أن يثير شكوكهم ، فليس من المعقول أن يتحدث عجوز إلى التلاميذ ، عن زميل لهم فى هذه الساعة المبكرة ، وعندما أُغْلِقت أبواب المدرسة ، ودق الجرس ولم يعثر « خالد » على « طارق » ، فكّر فى أن يسرع إلى مدرسة «مشيرة» و «فادية» ، فهى قريبة من هذا المكان ، وموعد دخولهم يتأخر ربع ساعة عن مدرسة « طارق » . لم يضع « خالد » ثانية واحدة ، فأفسح

الخطى ، وكان يتمنى لو أن فى استطاعته أن يجرى ، لولا أن منظره – كعجوز يجرى – سيثير انتباه الناس ودهشتهم . . لذلك اضطر إلى أن يكتفى بالخطوات الواسعة السريعة . . وعندما وصل إلى الباب ، اتجه إلى (دادة فاطمة) وسألها إذا ماكانت « مشيرة » . . قد جاءت إلى المدرسة ، أم لا . . مدعياً أنه جَدها وأنها زارته بالأمس ، ونسيت كتاباً هامًّا عنده ، وأنه جاء به إليها . . رحبت (دادة فاطمة) بحامل الكتاب إلى « مشيرة » ، ولكنه سألها أن تبحث عنها ، لأنه يريد أن يتحدث إليها بضع كلمات . . فدخلت السيدة الطيبة إلى فناء المدرسة ، وراحت تتجول بعينيها بين الطالبات ، ولم يكن من السهل التعرف على « مشيرة » ، فكل الطالبات يلبسن ملابس متشابهة . . وعادت (فاطمة) بعد قليل لتقول « للجَد خالد» إن «مشيرة» لم تصل ، وكذلك « فادية » . . فاستمر « خالد » فى وقفته إلى أن أُغلِق الباب ، ودقت الأجراس ، ولم تحضر الفتاتان . . فاتجه إلى متنزه قريب يريد أن يستريح لبعض الوقت ، وليجد فرصة لكى يفكر فى وسيلة يلتقى فيها بأفراد المجموعة من المغامرين ، لكى يكونوا فى بيت عصابة السحرة قبل منتصف الليل . . وعندما دخل إلى المتنزه شاهد امرأة عجوز ، تحت قدميها كلب عجوز يرقد فى سبات عميق ، وكانت المرأة تبكى بدموع غزيرة ، ورغب « خالد » فى أن يسرع إليها لولا أنه آثر التريث

قليلاً ، وبدأ يراقبها . . كان بجوارها حقيبة كتب مدرسية ، وضعت يدها عليها بعد أن جففت دموعها ، ثم راحت تهز ساقيها وهى جالسة فى صمت ، وتفكير عميقين . . وامتدت يدها إلى جيبها وأخرجت قطعة من الشيكولاتة التى تحبها . . إنها النوع نفسه من الشيكولاتة التى تحبها « مشيرة » ، واتجهت أنظارها إلى شىء ملقى بين الحشائش ، وتبينت أنه « كرة » صغيرة نسيها طفل ، فقامت من مكانها ، وانحنت على الأرض لتلتقطها ، ثم راحت تقذفها فى الهواء وتلقفها ! ، ولم يستطع « خالد » أن يمنع نفسه من الجرى نحوها ، واختطف الكرة من بين يديها ، فصرخت :

– هات الكرة يا رجل يا عجوز !

انفجر « خالد » ضاحكاً وهو يقول : هل يليق يا عجوزة أن تلعبى بالكرة ؟

هتف « خالد » قائلاً : مشيرة ! . .

سألته : أنت أيضاً أصبحت عجوزاً ! . . إننى لا أكاد أصدق نفسى . .

قال لها : إنها مشكلة يجب أن نواجهها ، وبسرعة . . أين « فلفل » ؟

أجابت والدموع فى عينيها : لا أدرى . . واضح أنها مؤامرة

كبيرة ، وقعنا فى شركها ، ولست أدرى ما السبيل للخروج منها . .

أخذ « خالد » بيدها وهو يقول : يجب أن تهدئى يا « مشيرة » ، لكى نجد كلاً من « طارق » و « فادية » . . و . . آه ، إن (فهد) معك .

قالت : نعم ، هو معى ، ولكنه عجوز لا يكاد يقدر على نقل خطواته !

صاح قائلاً ، هيا بنا . . يجب أن يستيقظ (فهد) ، لنمضى معاً . . وخلال الطريق تحكين لى ما حدث لك ، وأروى لك كل ما جرى . . لقد وضعت يدى على حل لهذا (اللغز) الذى نعيشه . .

حملت « مشيرة » حقيبة كتبها المدرسية ، وبدا شكلها مضحكاً وهى تسير على هذه الصورة .

* * *



٤

روت « مشيرة » حكايتها « لخالد » . . لقد مضى يوم الأمس بالنسبة لها طبيعيًّا إلى ما بعد الظهر . .

هتف « خالد » : « إذاً لم يسرقوا منك سنوات العمر بالليل ؟ !

سألت فى ذهول : سرقوا سنوات العمر ؟ كيف ؟ !

قال « خالد » : أأنتِ لم تعرفى حقيقة ما حدث ؟ !

أجابت « مشيرة » : لا ، كل ما هنالك أنى استيقظت بعد الظهر من نوم طويل ، لأجد نفسى على هذه الحالة ، وقد أصبحت امرأة عجوزًا ، فرفضت مغادرة فراشى وأغلقت غرفتى على نفسى . . وبقيت فيها إلى أن تسللت منها فى الصباح إلى الخارج أحمل حقيبة كتبى ، ولم أستطع أن أواجه أمى وأبى ، وأنا على هذه الصورة الغريبة . . ولكن : ما هذا الذى قلته ؟ هل سرق أحد منا سنوات عمرنا ؟

قال « خالد » : نعم . . وعلينا الآن أن نبحث عن « فادية » و « طارق » . .

سألته « مشيرة » : كم سنة سرقوها منك ؟

لا أدرى بالضبط ، لكن فى حدود الخمسين !

قالت « مشيرة » : إنها مشكلة ما تصورت يوماً أنها ممكنة الحدوث . . لقد رأيت الكثير ، وقرأت الكثير ، إلا أننى لم أعثر مرة على شىء من هذا القبيل . . لكن من هم اللصوص ؟ !

خالد : المسألة ليست بهذه البساطة ، لقد كشفت عن مقر تآمرهم ، وعرفت الكثير من أسرارهم ، وفى استطاعتنا أن نستعيد ما سُرِق منا ، لو أننا التقينا جميعاً قبل منتصف الليلة . .

مشيرة : ما رأيك فى إبلاغ الشرطة ؟

خالد : الشرطة ؟ ماذا نقول لهم ؟ ! . . سوف يتهموننا بالجنون ويودعونا مستشفى الأمراض العقلية ، وتضيع علينا أعمارنا ، ونفشل فى استرداد السنوات المسروقة . .

قالت « مشيرة » : معك حق ، لو أن أحداً سمع حوارنا لنقلنا فوراً إلى المستشفى !

كان « خالد » و « مشيرة » يسيران فى بطء وتثاقل ، وقد حمل عنها « خالد » حقيبة الكتب ، وكان الناس يتطلعون إليهما فى ود وحب ، والأطفال يتمنون لو أنهم جلسوا إليهم ، ليحكوا لهم عن (أيام زمان) . . والجميع يفسحون له الطريق ، وينادون « خالد » : يا جَدى . . و « مشيرة » : يا جَدتى . . ويكتم الفتى والفتاة ضحكاتهما

فى صدورهما ، بل إنهما ينفعلان . . فيبتسمان والدموع تتجمع فى أعينهما . . إنها محنَة لم يمر بها إنسان من قبل . . وتنبه « خالد » إلى أنه لم يقض ليلته فى البيت ، وأنه يجب عليه أن يطمئن والديه ، فمضى مع « مشيرة » تجاه البيت ، وترك رسالة قصيرة من تحت الباب يقول فيها :

إنه قضى الليلة عند جَدته ، وأنه مر بالبيت صباحاً . . قبل الذهاب للمدرسة ليترك هذه الرسالة ، وقال : إنه سيقضى ليلة أخرى مع جَدته !

وفكَّرت « مشيرة » فى أن تصنع الشىء نفسه ، حتى لا تقلق عليها أسرتها ، ولكنها لم تكن تعرف كم ستبقى عجوز ، وما الموقف لو أنها عادت إليهم على هذه الصورة ، وطمأنها « خالد » إلى أنهم لابد وأن يكشفوا سر العصابة فى ليلتهم هذه ، وإلا فإنهم سوف يبقون عجائز . . للأبد ! !

ولم يكن ذلك « الأبد » يمتد بعيداً ، فإنهم فى هذه السن المتأخرة ، لا يتوقع لهم أن يعيشوا طويلاً ، وإن كانت الأعمار بيد الله ، لكن عمر « مشيرة » و « خالد » ذهب دون أن يتمتعوا به ، فقد قفزت بهم السنون ، نصف قرن من الزمان . . ما الحل ؟ !

كانت هذه الأفكار تخطر على بال « مشيرة » و « خالد » ، وهما ينطلقان للبحث عن بقية المغامرين . . وكان (فهد) يلهث وراءهما فى

الشوارع والطرقات ، وقد اشتد به التعب . . ومرا معاً على مدرسة « فـاديـة » أو (فـلـفـلـة) – وسـألت « مشيرة » عـن الحفـيـدة « فـاديـة » فأخبروها بأنها لم تحضر للمدرسة ، وسأل « خالد » عن الحفيد « طارق » ، وعلم أنه لم يذهب لمدرسته ، وكانا يتوقعان ذلك ، ولم يحاولا السؤال عنهما فى البيت ، فليس من المنتظر أن يبقيا فى منزليهما وهما على هذه الصورة ، وفكرا معاً :

– تُرَى إلى أين ذهب « طارق » و « فادية » أو (فلفلة) ؟ !

انتصف النهار والمغامر العجوز « خالد » ، والمغامرة العجوز « مشيرة » يبحثان فى كافة أنحاء المدينة ، عن « طارق » و « فادية » ، ولم يعثرا لهما على أثر ، لقد طافا بكل مكان يُحتَمل أن يوجدا فيه . . زارا الحدائق والمتنزهات ، ودور المسارح ، والسينما ، بدون جدوى وشعر « خالد » بقلق شديد ، فالوقت يمر بسرعة . . آه من هذه الكلمة « الوقت » ، كم أصبحت تصنع بهم . . قال « خالد » :

– الواضح أنهما يبحثان عنا ، ونحن نبحث عنهما . . ومن هنا تأتى صعوبة أن نلتقى . .

سألته « مشيرة » : ما الحل ؟ ! إننى أشعر بجوع وتعب شديدين !

– وأنا أيضاً . . ولا تنسى أننا « عجائز » و « مسنون » ، ولا نحتمل ما نبذل من جهد . .

سأل « خالد » : هل معك نقود ؟ !

مشيرة : نقود ؟ ! . . أظن . . معى ثلاثين قرشاً . .

خالد : وأنا معى أكثر قليلاً . . تعال بنا نتناول وجبة طعام ، ونستريح قليلاً ، ونفكر . .

مشيرة : هذه فكرة معقولة جدًّا . . هيا بنا . .

ودخلا إلى مطعم صغير متواضع . . وكان أول ما فكرا فيه أن يقدما للمسكين (فهد) طعاماً ، فقد نسياه على مدى اليوم ، فى زحمة بحثهما عن « طارق » و « فادية » . . ولم يكن ما معهما يكفى لوجبة كبيرة شهية ، لذلك اكتفيا ببعض (السندوتشات) . . والتقطا أنفاسهما ، وأخرجا بعض الأوراق والأقلام من الحقيبة ، وبدأ كل منهما يجمع أفكاره .

قالت « مشيرة » : إننا بحثنا عنهما فى مسارح العرائس والأطفال ، ودور سينما الكارتون . . وقد أخطأنا فى هذا . . الأفضل أن نفتش فى الأماكن التى يتردد عليها الكبار . .

رد « خالد » لماذا لا نحاول مع الإذاعة لتقدم نشرة صغيرة عنهما ؟

قالت « مشيرة » : لا أظنهما يستمعان للإذاعة . .

همس « خالد » فى حسرة : المشكلة الحقيقية الآن تكمن فى (الوقت) . . إنه يتسرب بسرعة ، وأكاد أفقد صوابى بسبب ذلك .

أقبل خادم المطعم فى هذه اللحظة ، ليسألها إذا كانا فى حاجة إلى فنجانين من القهوة . . تبادل « خالد » و « مشيرة » النظرات . .

لِمَ لا ؟ ! . . نعم . . هات لنا فنجانين من القهوة .

سألهما الرجل : مضبوط ؟ !

قال « خالد » : نعم . . وردت « مشيرة » : أحبها سكر زيادة !

وابتسما . . إنهما لن يتصرفا حتى الآن كما يتصرف الكبار . . لقد كانا دائماً يرغبان فى أن يكبرا بسرعة ، لكى يستمتعا بكل ما لدى الكبار من وسائل استمتاع . . كانا يريدان أن يجلسا فى مقهى ، ويسهرا ، ويفعلا كل ما يحلوا لهما دون أن يحاسبهما أحد على شىء ، فما بالهما عندما كبرا فجأة ، لم يسعدا بذلك كثيراً ، بل إنهما حزينان على ما ضاع منهما حزناً عميقاً ؟ ! . . وكثيراً ما حسدا الكبار؟ وها هما ذا كبار ، وبرغم ذلك فهما فى موقف لا يحسدهما أحد عليه ، ولا يساعدهما مخلوق فى الخروج من هذا المأزق الخطير ، ولا يساهم معهما فى حل « لغز الألغاز » ، الذى وقعا فيه كمغامرين . . وهما ليسا مبتهجين بهذه « المغامرة » على الإطلاق ، لقد فُرِضت عليهم ، وهم جميعاً غير قادرين على حل المشكلة ، فقد توصلت العصابة إلى (تكنولوجيا) متقدمه ، استطاعت عن طريقها سرقة الزمن ، واستعادته ليس سهلاً . .

وقطع عليهما خادم المطعم أفكارهما ، وحمل إليهما القهوة ، وما كانا يرغبان فيها ، ولكنهما شيشربانها تقليداً للكبار ، ولتعينهما على السهر ، فأمامهما ليلة طويلة يعلم الله وحده ما سيجرى فيها . . وراحا يرشفان من قدحى القهوة فى بطء ، وغرقا فى تفكير عميق . . إن الوقت يمر بسرعة ، ووقت العصر قد اقترب ، وحتى الآن ما من أمل فى لقاء «طارق» و «فادية» . .

وما إن انتهيا من شرب القهوة ، حتى غادرا المكان بعد أن دفعا الحساب ، ومضى (فهد) وراءهما وقد دب فيه بعض النشاط ، وإن كانت مظاهر الشيخوخة قد ظهرت عليه . . تطلع إليه « خالد » ، وقال :

– يا (فهد) ، لماذا لا تساعدنا بحاسة الشم عندك ، فتدلنا بها على « طارق » و « فادية » ؟

وهزَّ (فهد) رأسه ، كأنما فهم ما طلبه منه ، ومضى على الطريق برفع رأسه وأنفه ، ويتلفت هنا وهناك ، وعيناه تفتشان بين الناس فى لهفة واهتمام ، وكأنه أدرك خطورة الموقف ، وأحس بضرورة المشاركة فى القبض على اللصوص ، حتى يستعيد هو أيضاً السنين التى سرقوها منه ، ومنحوها لكلبهم . . وفجأة هتفت مشيرة : «خالد» . . هل تعرف أين مقهى أصحاب المعاشات ؟

تطلع إليها « خالد » فى دهشة ، فهذه أول مرة يسمع باسم هذا المقهى ، ولكنه استنتج ما تهدف إليه بسؤالها ، وعندما أجابها بالنفى ، أضافت :

– جَدى كان يجلس فى مقهى يحمل هذا الاسم . . أو يحمل اسماً قريباً منه . . مثل مقهى النشاط ، أو شىء من هذا القبيل . . إنه قريب من دواوين الحكومة فى الحى الذى تتركز فى الوزارات والمصالح . . .

قال « خالد » : تعالى نستقل تاكسى إلى هذا الحى ، وسوف نعثر على من يدلنا على المقهى ، لكن هل تجلس النساء فيه ؟

أجابت : لا أظن . .

قال : إذاً لا أظنهما هناك . .

قالت « مشيرة » : ربما ذهب « طارق » وحده إلى هذا المكان .

سأل « خالد » : وأين « فادية » ؟ !

قالت « مشيرة » : لماذا لا تفترض أنهما معًا ؟ قد لا يكونان معًا . .

سكت « خالد » ، وغرقا فى بحر من التفكير . تُرَى هل فقدا كل أمل فى العثور على « طارق » و « فادية » ، وبالتالى فقدا كل أمل فى استعادة سنين العمر التى فقدوها ؟ ! . .

إن المغامرين لا يفقدون الأمل أبداً . . ويعرفون أن خيطاً ضئيلاً



من النور سوف يصل بهم إلى بر الأمان ، وإلى تحقيق كل ما يرجونه . . ولكن : أين الخيط ؟ !

أمسك « خالد » بيد « مشيرة » ، وقال لها : « أطلع هذا الحافر » . . إنها جملته الشهيرة . . وأضاف : هيا بنا إلى مقهى أصحاب المعاشات !

* * *

٥

انطلق « خالد » و « مشيرة » ، ومعهما (فهد) ، مسرعين إلى ذلك الحى الذى يضم المقهى العتيد ، وعليه أصحاب المعاشات ، يجلسون : بعضهم فى صمت مطبق ، يسند رأسه على كفه ، والبعض الآخر يلعب النرد ، أو الورق ، أو الشطرنج . . وبين حين وآخر يرتفع صوت أحدهم بالشجار ، ويتهم منافسه بأنه « يغالط » ! وتثور خلافات يحسمها المتفرجون . . وبين الحين والآخر يطلب أحدهم كوباً من الشاى أو فنجاناً من القهوة ، وإذا حمى وطيس اللعب يخرج سيجارة يشعلها فى سرعة وقلق ، ويعود إلى « المعركة » .

قال « خالد » : إنه لشيء مؤسف أن يبدد هؤلاء الناس الوقت على هذه الصورة .

سألته « مشيرة » : وهل فى استطاعتهم أن يفعلوا شيئاً غير هذا ؟

أجاب : بالطبع . . بعضهم يمكث فى مكانه هذا ساعات طوال . .

قالت « مشيرة » : إن كلاًّ منهم قد أدى واجبه فى شبابه ، وحان

أوان اعتزاله العمل .

عقّب « خالد » : كان يجب أن يستعد كل منهم من طفولته لهذا اليوم . . فيمارس هواية مفيدة ، يستمر فى ممارستها عندما يكبر . .

ضحكت « مشيرة » وهى تطوف مع « خالد » حول المقهى ، وسألت « خالداً » :

أى هواية تمارس أنت الآن أيها العجوز ؟

خالد : إنى مارست فى « الطفولة » الرسم . . وعندما أُحال إلى المعاش سأبدع بعض اللوحات ، وأكتب مذكراتى و . . .

ضحكا ، وقد نسيا المشكلة بضع لحظات ، عندما اختلطا بمجتمع ذوى المعاشات ، وتنبها إلى ضرورة الإسراع فى البحث عن « طارق » فى المقهى ، فاستأذن « خالد » منها لكى يدلف إلى داخل المقهى ، ومضت هى إلى نافذة المعروضات أمام المقهى ، وبحث « خالد » بين الجالسين فى اهتمام ، إلا أنه لم يجد من يشبه « طارق » ، لكنه توسم فى أحدهم أنه قد يكون هو . . فمضى إليه فى هدوء ، وسأله فى كلمة واحدة :

– طارق ؟ !

نظر إليه الرجل ، كأنه ينظر إلى إنسان فقد عقله ، ورد عليه :

– طارق ؟ ! أى طارق ؟ ! طارق بن زياد ؟ !

ضحك « خالد » ، وجاراه الرجل فى الضحك بشكل هستيرى ، وهو يقول . .

– لى حفيد اسمه « طارق » . . هل تبحث عن جَد « طارق » ؟ !

أجاب « خالد » : بل أبحث عن طارق نفسه . .

ضحك الرجل وقال : لا أظن أحداً من الجيل الذى يحمل اسم « طارق » ، قد أصبح جَدًّا . . إننا لم نستخدم هذه الأسماء إلا فى الأربعينيات ، وقليلون ممن تجاوزوا الثلاثين أو الأربعين يُطلقَ عليهم هذا الاسم ! . . لكن : لماذا تبحث عن « عجوز » اسمه « طارق » ؟ !

قال « خالد » : الواقع أنه ليس عجوزاً كما تتصور ، ولكن . .

جذب الرجل مقعداً ، وطلب من « خالد » أن يجلس ليحكى له القصة ، لأنه يرغب فى الاستماع إليها للتسلية . . والعجائز يسعَدون إذا ما تعرفوا إلى شخص يحكى لهم أو يسمع منهم . . و « خالد » لا وقت عنده لكل هذا ، ويرغب فى أن يتخلص من الرجل بأسرع ما يمكن ، والرجل متشبث به ، ويود – كالأطفال – أن يستمع إلى (حكاية رجل عجوز اسمه « طارق ») ! ، ويعده « خالد » أن يعود إليه فى فرصة أخرى لأن . . لأن . . وأراد أن يطلق على « مشيرة » صفة ، فقال :

– لأن جَدتى تنتظرنى فى الخارج . .

وقهقه الرجل بشكل أثار انتباه كل مَنْ فى المقهى ، فنظروا إليهما و « خالد » يود لو يتركه الرجل ، غير أن الرجل ارتفع صوته . . وهو يشير « لخالد » ويحدث كل رواد المقهى . .

— تصوروا . . جَدته تعيش !

وضحكوا كثيراً ، وعقب أحدهم : « تعيش انت » !

وعلت الضحكات من جديد على هذا التعبير الذى يُقال فى مناسبات الوفاة والعزاء . . وابتسم « خالد » لخطئه ، فما يمكن تصور أن تعيش جَدته ، وهو عجوز فى السبعين ، وتخرج معه إلى الشارع ، وتنتظره فى الخارج . . إنه يتحدث كأنما هو « خالد » (الصغير) ، الذى سُرِقت منه سنوات العمر ، وفاته أنه يبدو أمام الجالسين فى المقهى أكبر منهم سنًّا . . وحاول أن ينسحب بسرعة ، إلا أن الأيدى تجاذبته تسأله أن يلتقوا بجَدَّته ، فالتفت إلى الشارع يبحث عن « مشيرة » ، وإذا به يراها وسط جمع غفير من الناس ، وأصوات عالية ترتفع من هنا وهناك . .

اعتذر « خالد » بسرعة لرواد المقهى ، ووعدهم — إن بقى على هذه الصورة — أن يعود إليهم فى الغد ، ليقتل معهم « الوقت » ، وتركوه يغادرهم وهم يضحكون ويتندرون ، فى حين جرى هو تجاه « مشيرة » و (فهد) والناس الذين تجمعوا ، وإذا به أمام مفاجأة

كبيرة . . الناس يمسكون بتلابيب « مشيرة » لأن كلبها نبح امرأة عجوز ، وأمسك بزيل ثوبها حتى انقطع . . وعندما حانت منه التفاتة للمرأة العجوز التى انقطع ثوبها هتف صارخاً :

فلفلة ؟ !

قالت « فادية » : خالد ؟ !

كان الناس قد تجمعوا . . يطالبون « مشيرة » بتعويض « فادية » ، عن ثوبها الذى قطعه الكلب (فهد) ، وأسرع « خالد » يحول بين الناس وبين « مشيرة » ، ويعدهم بتسوية الأمر ، ولم ينفض جمعهم إلا بعد أن طمأنتهم « فادية » إلى أن الأمر بسيط ، وأن الكلب لم يعضها ، بل نبح وجذب ثوبها لكى يأتى بها إلى « مشيرة » صديقتها ، وإن الثوب انقطع لأنها قاومت الكلب ، ولم تتعرف عليه لأول وهلة لأنه قد أصبح . . عجوزاً ! !

انصرف الناس وتركوا « مشيرة » و « فادية » و « خالد » ، ومعهم الكلب (فهد) ، وقد بدأت الشمس تغرب من الوجود ، وسارع المغامرون يبحثون عن مكان هادئ ، يتبادلون فيه الحديث ، ويحاولون التعرف على الخطوة التالية . .

وحكت « مشيرة » بسرعة « لخالد » كيف استطاع (فهد) أن يكتشف (فلفلة) وهى تقف عند نافذة معروضات قريبة ، وقد نبح

عندها عدة مرات ، إلا أنها لم تلتفت إليه ، وعندما رأته لم تعرفه ، فاضطر (فهد) إلى أن يجذبها من ثوبها ، لكى يأتى بها إلى « مشيرة » ، وتجمع الناس على منظر الكلب وهو يفعل هذا ، وثاروا ضد صاحبته ، وتجمعوا بشكل سريع . . حال بين « فادية » وبين أن تدرك حقيقة الموقف كله ، ولم تنتبه لما حدث إلا عندما رأت « خالداً » بلحيته الطويلة ، وشعر رأسه الأبيض لقد أذهلتها صورته ، ثم صورة « مشيرة » ، كما صعقت من قبل حين تطلعت إلى صورتها فى المرآة ، فى صباح اليوم نفسه . . كانت تريد أن تربط شعرها بشريط أبيض ، فإذا بها ترى الشعر والشريط بلون واحد . . وكادت لا تتبين صورتها ، إذ أن عينيها كانتا لا تريان عن بعد ، وعندما حاولت أن تتعرف على نفسها ، اقتربت حتى لامست سطح المرآة ، والتصق جبينها المغضن بصورته ، كما التقى أنفان أفطسان (مكرمشان) على جانبى المرآة ! ! . . وانفجرت بالبكاء ، ولم تدر بنفسها إلا بعد أن خرجت من البيت ، وظلت منذ الصباح تبحث عن بقية المغامرين لتشكو إليهم ما حدث لها ، فإذا بهم يعانون من المشكلة نفسها . . وطمأنها « خالد » إلى أنه استطاع أن يتعرف إلى الكثير من أسرار العصابة التى سرقت منهم الزمن ، وإنهم قادرون ببراعتهم على استعادة كل شىء ، بشرط العثور على « طارق » ، والوصول إلى ذلك البيت الصغير

المسحور المختبئ وسط أشجار الحديقة ، فى الحقول المترامية الأطراف خارج المدينة . . على أن يتم ذلك قبل منتصف الليل ، وإلا فإنهم سوف يقضون ما تبقى لهم من العمر فى هذا السن . . أى فيما بعد السبعين ! !

وعندما أدركت « فلفلة » ما حدث ، نشط ذهنها للعمل ، والتفكير . . أين يمكن أن يكون « طارق » ؟ ! . . فى النادى يلعب الكرة ؟ ! . . وضحكت « مشيرة » و « خالد » . . بل حتى (فهد) ابتسم . . إنها لم تبدأ تفكر كامرأة عجوز فى شخص عجوز . . وعندما نبهوها إلى ذلك ضحكت من نفسها ، وبدأت تفكر بطريقة أخرى . . إنها تعرف أن « طارق » يتصرف دائماً بشكل أكبر من سنه ، فلو أنه الآن فى السبعين من عمره ، فلا بد أن يتصرف كأنه فى الثمانين ، وربما ذهب ليلتقى بأعضاء (المجمع اللغوى) ، أو . . .

ودعتهم « فادية » لشرب الشاى فى مكان جميل قرب شط النيل ، فقد كان معها بعض النقود ، وعقد المغامرون الثلاثة اجتماعاً شهده (فهد) ، جالساً تحت أقدامهم ، لكى يقرروا الخطوة التالية ، وكان أهم ما يواجههم هو العثور على « طارق » . . لقد جاءت « فلفلة » تبحث عنهم فى المقهى ، وذهب « خالد » و « مشيرة » إلى المقهى بحثاً عن « طارق » ، فكانت مفاجأة التقائهما بها ، ولم يعثروا عليه . .

ما الحل ؟ ! . . أين يمكن أن يكون قد ذهب ؟ ! إن الوقت أزف ، ويجب أن يتجه الجميع إلى المنزل الصغير المسحور ، ليديروا عقارب الساعة للوراء ، ليستردوا كل ما فقدوه . . ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بوجودهم جميعاً ، ومعاً . . لقد تحدثوا طويلاً دون أن يصلوا إلى نتيجة . . فكروا فى أن يتفرقوا فى أنحاء مختلفة من المدينة ، ولكنهم خافوا ألا يلتقوا مرة أخرى ، فقد يعوق أحدهم شىء ما . . فلاهم يتجمعون ، ولا هم يلتقون مع « طارق » . . .

وطرأت لهم فكرة اعتبروها موفقة ، فغادروا المكان مسرعين . .

* * *



٦

اتجه المغامرون الثلاثة ومعهم (فهد) إلى قسم الشرطة ، ودخل « خالد » فى حين انتظرت « مشيرة » و « فلفلة » و (فهد) بالباب . . وأبلغ « خالد » الشرطة أنه يبحث عن شقيق له عجوز ، وأنه فى حاجة ضرورية للقائه ، لكى يلحقا بطائرة مسافرة فى منتصف الليل . . وأراد ضابط الشرطة الذكى أن يكرم العجوز « خالد » فتصرف بلباقة . . أذاع بسرعة خاطفة نشرة فى (الووكى توكى) ، ذلك الجهاز الصغير الذى يحمله كل أمناء الشرطة فى المدينة ، طالبهم بأن يشتركوا فى البحث عن عجوز اسمه « طارق » ، وأذاع أوصافه كما يتصورها « خالد » ، وأضاف إليها أنه مصاب ، بنوع من (النكوص) ، أى أنه يتصرف أحياناً كالأولاد الصغار . . وبقى « خالد » ينتظر . . وبدأت ردود أمناء الشرطة ، تصل إلى القسم ، لقد عثروا على أكثر من شخص ، يحمل هذه الصفات الغير دقيقة ، فما كان من الضابط إلا أن أشار على الأمناء ، بأن يدعوا هؤلاء الأشخاص ، يتحدثون إلى « خالد » من خلال جهاز اللاسلكى الصغير . . فقد خشوا ألا يذكر

« طارق » ، اسمه الحقيق لأمناء الشرطة ، وقد ذهل ضابط الشرطة ، وهو يسمع الحوار بين خالد . . وبين بعض من عثر عليهم . .
وقال « خالد » : هل أنت « طارق » ؟
- لا . .
- أرجو أن تتكلم . . هل أنت فى الصف الثالث الفصل الأول ؟
- عيب عليك أن تسأل عجوزاً مثلى هذا السؤال السخيف .
-آسف ، لكن المسألة عاجلة جدًّا . .
- شىء سخيف أن يتعرض أمين شرطة لعجوز مثلى بلا سبب .
- أعتذر لك نيابة عن الشرطة . . إننا نبحث عن شقيق لى . .
- هل ارتكب شيئاً مخالفاً للقانون ؟
- لا . . لا . . أكرر اعتذارى . .

لم تكن المحادثات خلال (الووكى توكى) تزيد على هذه العبارات . . ولكن خيطاً من الأمل جاء فى بلاغ واحد من أمناء الشرطة فى الساعة العاشرة مساءً . . لقد عثر على عجوز اشترى أربع بالونات ملونة ، و (مصاصة) ، وأنه نزع عنها الغلاف ، وبدأ يستعملها . . ولكنه رفض أن يذكر اسمه لأمين الشرطة . . وأعلن أنه اشترى البالونات ، من أجل أحفاده المغامرين الأربعة . . عند ذلك أيقن « خالد » أنه تمكن أخيراً من العثور على « طارق » ، لكن

المشكلة كانت فى رفض « طارق » أن يتحدث من خلال الجهاز ، ورفضه أن يبقى مع أمين الشرطة ، الذى حاول احتجازه بعض الوقت ، فما كان من أمين الشرطة إلا أن وضع الجهاز ، قرب أذنه و « خالد » يهتف من الجانب الآخر . .

طارق . . طارق ، طارق . . . أنا « خالد » . .

وهنا تسمرت أقدام العجوز ، وتهلل وجهه وظهرت عليه أسارير الفرحة ، فامتدت يده بالبالونات والمصاصة لرجل الشرطة ، وأمسك بالجهاز بين يديه ، وهتف . .

– أين أنت يا « خالد » ؟ ! . . أين « مشيرة » ؟ أين « فادية » ؟ بل وأين (فهد) ؟ . . هل أصبحتم عجائز مثلى ؟ !

خاطبه « خالد » فى هدوء :

لا تقلق . . نحن فى قسم الشرطة . .

قسم الشرطة ؟ لماذا قبضوا عليكم ؟

إنهم لم يقبضوا علينا . . إن (الشرطة فى خدمة الشعب) . . هم يعاونونا فى البحث عنك . . لابد أن نلتقى فوراً . . الوقت أزف . . أين أنت ؟ !

– سآتى إليكم فى قسم الشرطة . .

– أسرع . . أسرع . . أسرع . .

وأغلق « خالد » الجهاز ، وانتفض قائماً من مكانه ، وصافح ضابط الشرطة فى امتنان عميق ، وشدَّ على يده شاكراً ما بذله من جهود ، ورغب الضابط فى أن تستمر الشرطة فى خدمتهم ، واعتذر « خالد » بأنهم أدوا ما عليهم ، وأنَّ على المغامرين أن يقوموا بمسئولياتهم . . وكان الضابط يود أن يعرف حقيقة ما يحدث بالضبط ، فقد أدرك أن وراء الأمر شيئاً . . وأنف الضابط قادرة على . . (شم) الجريمة على بعد أميال . . وصارحه « خالد » أن المسألة خارجة عن نطاق مسئوليات الشرطة ، فالسارق سرق شيئاً لم ينص عليه القانون . . لقد سُرِقت منهم بعض سنين العمر ، بوسيلة تكنولوجية عصرية ، توصل إليها مجموعة من اللصوص ، يشكلون عصابة فى منتهى الخطورة ، ولابد أن تُقاوَم . .

كان الضابط يستمع إلى « خالد » وهو فى ذهول . . فما مرت عليه فى حياته الشرطية مثل هذا الأمر الغريب . . إن (التكنولوجيا) تُستخدَم لصالح الإنسان ، لكن كثيراً ما يسىء اللصوص استخدامها ، وهم يواجهون (تكنولوجيا) الأمن ، التى تستخدمها البنوك لحماية ، أموالها بلون آخر من (التكنولوجيا) ، والصراع بين الخير والشر تتطور أساليبه ، منذ العصر الحجرى وإلى الأبد سيظل مستمرًّا ، وقد يكسب الشر ، خطوة أو خطوتين ، لكن الهزيمة تلحق به دائماً فى

نهاية المطاف . . المهم دائماً فى الاكتشافات العلمية أن تستخدم لصالح الإنسان ، لا فى تدميره . . إن تحطيم الذرة حطم مدينتى هيروشيما ونجازاكى ، والآن يستخدم كطاقة لإدارة المصانع وتحطيم الصخور التى تعوق مسار الإنسان . . إن الشرطة تستخدم اللاسلكى ، وكذلك العصابات . . كانت هذه الأفكار تخطر فى ذهن الضابط ، وهو يجلس مع « خالد » (العجوز) ، يستمع إليه ، ويبدى الدهشة الكبيرة لما توصل إليه (عباقرة الإجرام) إن كان يمكن أن يكون بينهم عباقرة ، فالعبقرى يجب أن يدرك أن الخير لا بد أن ينتصر ، والإنسان – مهما بلغ ذكاؤه – إذا استخدمه فى الشر ، فهو ليس بذكى . . إن سرقة (ثانية) من عمر الناس . . جريمة ، فما بالنا بسرقة بضع سنين ؟ ! . . إنها فى عرف الضابط جريمة أقرب للقتل ، ويجب أن يُحاكَم أصحابها ويُعدَموا ، لأنهم يحرمون الأولاد والبنات من أجمل سنين عمرهم ، ويسلبونهم زهرة حياتهم وفتوتهم ، وهذه جريمة رهيبة ، وقد عرض الضابط على « خالد » أن يحتاطوا للأمر ، وأن تشاركهم الشرطة – ولو من بعيد – مواجهة أفراد هذه العصابة التى تسىء استخدام العلم والتكنولوجيا ، وشكره « خالد » على ذلك شكراً عميقاً ، وإن كان قد فضل أن ينهض هو وزملاؤه بما تبقى من مسئولية . . وكانت «مشيرة» و «فادية» قد تعبتا من الوقوف ، فجلستا

فى غرفة الانتظار فى قسم الشرطة ، وكانت الأخبار تصلهم أولاً بأول من غرفة الضابط ، وعندما بلغهم نبأ الاتصال ، الذى تم بين « خالد » و « طارق » ، غمرتهم فرحة كبيرة ، وشعروا أنهم وقد اجتمع شملهم ، فلن تستطيع العصابة مهما بلغت من ذكاء وقوة أن تتغلب عليهم ، إنهم مغامرون ، وقادرون على أن ينزلوا بالشر وعصابته أقوى ضربة . . وكان (فهد) خلال ذلك يتنقل ما بين باب القسم ، وما بين الغرفة التى جلست فيها « مشيرة » و « فادية » ، ويطل برأسه بين حين وآخر على الضابط و « خالد » وهما يجريان اتصالاتهما مع أمناء الشرطة فى شتى أنحاء المدينة . . إلى أن وصل « طارق » فتعلق (فهد) ، وشبَّ على كتفيه ، عجوز يحتضن عجوزاً ! ، وحاول رجال الشرطة إبعاد الكلب الأمين ، إلا أن صديقه « طارق » ضمه إليه فى ود وحب ، وتركوهما لحظات ، كان « طارق » خلالها يسرع إلى الداخل ، وخرجت « مشيرة » و « فادية » لاستقباله بحفاوة بالغة ، وكان رجال الشرطة يعجبون لهذه المجموعة الكبيرة من العجائز الذين تجمعوا فى (القسم) ، وخرج إليهم « خالد » ، ومن ورائه ضابط الشرطة الذى ودعهم ، وتمنى لهم التوفيق والسداد . .

وما إن غادروا المبنى حتى استدعى الضابط إليه اثنين من أنشط أمناء الشرطة ، وطلب إليهما أن يتتبعا العجائز الأربعة ، عن بعد ،

وأمرهما ألا يتدخلا قط فى أى شأن من شئونهما ، إلا إذا شعرا أنهم فى خطر ، أو أحسا أنهم فى ورطة كبيرة ، لابد من إنقاذهم منها . . وأدى أمينا الشرطة التحية ، وغادرا المبنى فى خطوات سريعة . . والتفت أحدهما لليمين ، والثانى لليسار ، رأى واحد منهما العجائز الأربعة ، ومن ورائهم كلبهم (فهد) يسيرون فى خفة ونشاط ، وأضواء الشارع تتناقص ، فالمحلات التجارية قد بدأت تغلق أبوابها ، ولم تعد سوى الأعمدة المرتفعة ، ترسل بنور شاحب ، وسيارات قليلة تغدو وتروح ، والمغامرون الأربعة ، وخامسهم كلبهم ينطلقون بسرعة ، ويتلفتون بحثاً عن سيارة يستقلونها إلى خارج المدينة ، للذهاب إلى البيت الأبيض الصغير المسحور ، بحثاً وراء سنين عمرهم التى سُرِقت . . وطال بهم الوقت ، ليعثروا على سيارة يقبل صاحبها أن ينقلهم ومعهم (فهد) إلى خارج المدينة ، ولكنهم نجحوا أخيراً فى أن يستقلوا تاكسى ، دفع به إليهم أمينا الشرطة ، واتفقا مع سائقه أن يتيح لهما فرصة متابعته عن بعد من سيارة الشرطة . . وانطلق السائق مسرعاً كما طلبوا منه ، وراح يخترق بهم شوارع المدينة ، والساعة تقترب من الحادية عشرة مساءً . . وكان « خالد » يستحث السائق ، ويسمع حكاية « طارق » مع « مشيرة » و « فادية » ، لقد عانى المسكين كثيراً من شيخوخته المبكرة ، إذ وصل به اللصوص إلى سن الثمانين ، وظل على مدى اليوم

مشردًا فى الشوارع ، تتقاذفه الطرقات ، ويلقى الكثير من التصرفات الصبيانية السخيفة ، من أولاد وبنات سخروا من شكله وملابسه ، بطريقة أزعجته وأبكته ، وظل حزيناً محسوراً إلى أن سمع خلال (الووكى توكى) صوت « خالد » . . .

* * *



٧

عندما وصلت السيارة إلى خارج المدينة ، راح « خالد » يحدق فيما حوله يمينًا ويسارًا ، بعينين زائغتين ، وفى مكان ما طلب من السائق أن يقف ، ونقدوه أجره ، وغادروه شاكرين . . وما إن انطلق السائق حتى التف المغامرون حول « خالد » يسألونه :

- وماذا بعد ؟ !

مضى « خالد » ، وتطلع إلى الحقول يفتش عن معالم الطريق إلى البيت الأبيض المسحور ، ولكن كان واضحًا أنه مضطرب غاية الاضطراب ، وهمس فى حزن وأسى : واضح أننا فقدنا الطريق !

فزع الجميع ، وتبادلوا نظرات مليئة بالألم ، والقلق . . وكان الظلام يخيم على الدنيا ، وعذر « خالد » أنه لا يستطيع أن يتبين طبيعة المكان ، ولم يكن يريد أن يفقد دقيقة واحدة من وقته ، لذلك فإنه لم يتطلع جيدًا للطريق والبيت ، فى بعض المواقف ، وعليه أن يصبر جانبًا من الوقت ، لكى يتفادى المشاكل مستقبلاً . .

نعم ، فى العجلة الندامة !

. .

ابتسم « طارق » وعقب : بل فى العجلة « فرامل وجرس » !

ضحك المغامرون الأربعة ، حتى (فهد) هزَّ ذيله ، وعاودهم مرحهم القديم ، الذى يواتيهم فى وقت الشدة ، ويعينهم عليها ، وعلى الرغم من أنهم كانوا متعبين مجهدين ، يشعرون بالأسى فى أعماقهم ، إلا أن البسمة عادت إلى وجوههم ، وراحوا يعملون فكرهم فى المشكلة . . وكان أمينا الشرطة يقفان على مسافة بعيدة وراء بعض الشجيرات . . وهم يرقبون الموقف فى هدوء وسكينة ، ومضى بعض الوقت ، وفجأة هبت ريح خفيفة ، دفعت بالسحب التى تجمعت فى السماء ، وأطل القمر ، وفرش المكان من حولهم بضوئه الفضى ، فسرى فى نفوسهم أمل عريض . . ها هى ذى السماء تتدخل لمساعدتهم . . وأسرع « خالد » تجاه شجرة تقف على جانب الطريق ، وحاول أن يتسلقها ، فلم يتمكن ، إذ كانت ملساء ناعمة ، فتقدم « طارق » يعاونه ، ولم يستطع وحده أن يقوم بالمهمة ، فسارعت « مشيرة » و « فادية » . . تشابكت أصابعهما ، ووضع « خالد » قدمه عليهما ، واستند على « طارق » ، واستطاع أن يمد يديه إلى أن تعلق بفرع الشجرة . . وارتفعت الأصابع المتشابكة إلى أعلى ، وساعد « طارق » فى دفع « خالد » إلى أن نجح فى الوصول إلى ما فوق الفرع . . وتنفسوا الصعداء ، وراحوا يرقبونه وقد عادت إليه حيويته ،

ونشط فى التسلق كأنه قرد عجوز ، ووصل إلى مكان مرتفع ، راح يتطلع منه إلى كل ما حوله ، وبعد لحظة هتف :

- أوريكا ! أوريكا ! أوريكا !

إنها كلمة شهيرة . معناها : وجدتها . . أطلقها العلامة « أرشميدس » ، حين ألقى بنفسه فى حوض الحمام فى البيت ، مشغولا بالتفكير فى سبيل يكتشف به ، إذا ماكان التاج من الذهب الصافى ، أو أنه مخلوط بمعدن آخر . . وفى الحمام وجد الحل فى كمية الماء ، التى أزاغها جسمه من الحوض ، فانطلق عاريًا يصرخ : أوريكا ! . . وقد اتخذ المغامرون الأربعة هذه الكلمة ، يطلقونها عندما يعثرون على حل لمشكلتهم ، أو يجدون شيئًا يبحثون عنه .

وعلى أثر إطلاق الصيحة بدأ « خالد » يستعد للهبوط ، وكان « طارق » و« مشيرة » و« فادية » فى قلق لصعوبة نزوله ، وتقدموا لكى يستند بطرف قدمه على كتف « طارق » ، ثم قفز لتتلقفه « مشيرة » و « فادية » بين أيديهن ، ليخففوا من أثر وقوعه على الأرض . . وما إن قام حتى سألوه فى لهفة : هل عثرت على البيت ؟

نعم . . إنه على بعد أمتار من هنا ، المهم أن نتسلل فى هدوء تام ، فإنهم إذا اكتشفوا وجودنا ضاع منا كل شىء .

كان أمينا الشرطة يرقبان ما يجرى فى صمت كامل ، ويتتبعان

العجائز وهم يقومون بهذه التصرفات الغريبة ، دون أن يتدخلا . . وبدأ المغامرون الأربعة ينطلقون خلال الحقول ؛ وفى مقدمتهم « خالد » ، ومن ورائهم (فهد) . . وكان وقع أقدامهم لا يسمع له صوت ، حتى لقد وجد أمينا الشرطة صعوبة فى تتبعهم من بعيد ، لولا أنهما مدربان على ذلك ، وقادران على قص الأثر . .

لقد كانوا فى عجلة شديدة من أمرهم ؛ ولكن الدرس الذى تلقوه أخيرًا – حين فات « خالد » أن يتعرف على الطريق فى أثناء خروجه منه – جعلهم يحسنون تقدير الأمور .

أخذ المغامرون يسرعون الخطى وفى حذر شديد . . إن عامل الوقت مهم ، وفى الوقت نفسه لا يقل « عامل التخفى » ، عنه أهمية وخطورة . . وعند ما لاح لهم المنزل من بعيد ، وشاهدوا النور يطل من وراء نوافذه . . تنفسوا الصعداء . .

تساءل « خالد » : أين يا ترى كلبهم الصغير؟ . . لقد كان بالحديقة يحرس البيت ، وهو قد يسبب لهم بعض المشاكل ، فأشار إلى « مشيرة » بالبحث عنه ومحاولة إغرائه بالصمت . . بكل ما لديها من حيل ، تعرفت عليها خلال تعاملها الطويل ، مع (فهد) الذى كان يجرجر ، أقدامه تعبًا خلال تسللهم إلى حديقة المنزل . . ولكن « مشيرة » لم تحتج إلى خبرتها هذه ، فإن الكلب (الصغير) ، كان قد

جرى ولعب حتى لهث من شدة التعب ، وبحث عن مكان دافئ يقضى فيه ليلته ، وراح فى سبات عميق . . فاستراح ، وأراح المغامرين من موقف حرج ، قد يتعرضون له . .

استمر تسلل « خالد » ومن خلفه « مشيرة » ، وبعدها « فادية » ثم « طارق » ، يحمى ظهرهم . . فى حين كان (فهد) وراء الجميع يدور حول نفسه . . خوفًا من المفاجأة ، إلى أن وصلوا إلى باب البيت ، فوجدوه – كما توقعوا مغلقًا – وكان فى استطاعتهم أن يروا الساعة من باب الشرفة الزجاجى ، وقد اقتربت من الثانية عشرة . . أى منتصف الليل ، وقد حذرهم « خالد » من ضرورة الوصول إلى البيت قبل التقاء عقربى الساعة . . ونجح « طارق » فى أن يقفز إلى الشرفة ، وراح يعالج بابها الزجاجى برفق ، حتى استجاب له ، ودخل إلى إحدى الغرف المليئة بالآلات والأدوات ، وقد سار على يديه وركبتيه ، حتى لا يُسمَع له صوت . . إلى أن وصل إلى الباب الخارجى للبيت ، وفتحه بمنتهى الهدوء . . وركع الجميع على ركبهم وأيديهم ، وراحوا يزحفون مثل « طارق » ، وكلهم يقظة وحذر . . ونبههم « خالد » ، بإشارة خفيفة من رأسه . . إلى أن أفراد العصابة يرقدون فى هذا المكان ، لكى يحرسوا الزمن الذى سرقوه ، وينامون وسط كومة القش ، وأنها تخفيهم بداخلها ، لأنهم أصبحوا صغارًا . . وفى هذه

اللحظة ارتفع نباح الكلب الصغير فى الحديقة ، وكانت هذه مفاجأة قاسية ، إذ يُخشَى أن يستيقظ أحد أفراد العصابة ، ولكن سرعان ما صمت الكلب . . وكان السر فى ذلك أن أمينى الشرطة ، اقتربا من المكان الذى ينام فيه ، ولكنهما بما عُرِف عنهما من براعة تمكنا من إسكاته . . فعاد الهدوء يغمر البيت والحديقة . . ولم يدرك المغامرون الأربعة سر نباح الكلب ، ولا صمته . . ولكنهم استمروا فى زحفهم ، فقد اقترب عقرب الدقائق من عقرب الساعات ، وإن هى إلا دقائق قليلة ويلتقيان . . وإذا ما حدث هذا فقد انتهى الأمر بالمغامرين الأربعة ، وسيظلون عجائز كما هم الآن . .

أشار « خالد » إلى المغامرون الثلاثة ، وإلى (فهد) معهم . . أن يحيطوا كومة القش ويحاصروها ، حتى إذا ما استيقظ أحد أفراد العصابة ، استطاع المغامرون القبض عليه ، والتعامل معه ، فى حين راح هو يزحف فى سرعة وبراعة تجاه الساعة . . وفجأة تحرك شىء بداخل القش ، فسكن كل شىء ، وتوقف المغامرون الأربعة عن التقدم ، ولكن الأمر عاد إلى ما كان عليه . . يبدو أن أحدهم كان يتقلب فى أثناء نومه . . وعاد الزحف من جديد ، واقترب العقربان أكثر . . لم تبق إلا دقيقة واحدة ، وتعلن الساعة منتصف الليل . . وفى هذه اللحظة قفز « خالد » ، كالفهد ، ليمسك بعقربى الساعة . . وعند

ذلك سمع صوت يشبه الانفجار ، وتحركت آلات ، كالهدير . . وبدا كأن هناك مصنع كامل يعمل . . وقفز أفراد العصابة الأربعة ، من وسط كومة القش ، وهم يشهقون فزعًا . . لقد وجدوا من حولهم حصارًا . . كما أن يد « خالد » التى امتدت لعقارب الساعة ، سمَّرت أفراد العصابة فى أماكنهم ، ولم يعد فى استطاعة أحد منهم أن يتحرك . . و (فهد) يصدر تحذيره الشهير فى صوت ممدود ، و « طارق » ، « ومشيرة » ، « وفلفلة » يقفون فى وضع الاستعداد للتعامل مع الأعداء إن هم حاولوا مغادرة أماكنهم ، وسط كومة القش ، فى حين بدأ « خالد » يدير عقارب الساعة إلى الوراء . . من اليمين إلى الشمال ، بعكس دورتها العادية ، وكان يسمع لكل لفة فرقعة ضخمة فى الغرف المجاورة ، حتى إن المنزل كان يهتز بعنف وشدة ، وصوت « خالد » يعلو ويرتفع بعدد الدورات التى يقوم بها : ١ ، ٢ ، ٣ . . . إلخ .

ظل أفراد العصابة ثابتين فى أماكنهم ، وبدا كل منهم مع دورات الساعة للوراء يصبح أطول ، فأطول ، إلى أن أصبحوا فى طول الرجل العادى ، والمرأة العادية . . ثم بدأت التجاعيد تزحف على وجوههم ، والشعر الأبيض يغطى رؤوسهم . . وفجأة ارتفع صوت « خالد » يقول :

احملونى . . احملونى . . إنى بدأت أصغر وأصغر ، ولم تعد يداى قادرتين على الوصول ، إلى عقارب الساعة . . أسرعوا . .

جرى « طارق » و« مشيرة » و « فادية » ، وشبك « طارق » أصابع يديه ، تحت قدمه اليمنى ، فى حين تشابكت أيدى « مشيرة » و« فادية » تحت قدمه اليسرى ، وكانت يدا « خالد » تعملان : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، وعندما وصل إلى الرقم ٤٠ ، فوجئ بأفراد العصابة وقد انحنت ظهورهم ، واقتربوا من جديد من الأرض ، وعند الرقم ٧٧ انطلقت صرخات أربع ، ونباح كلب فى الحديقة ، واختفى أفراد العصابة بالكامل ، كأنهم لم يُوجَدوا قط . . ونظر المغامرون الأربعة بعضهم إلى بعض وقفزوا فى فرحة غامرة . . لقد عادوا إلى أنفسهم . .



. . . .

والآن – أولادنا – إذا كانت قصة « الأربعة الذين سرقوا الزمن » قد أعجبتكم ، فنريد منكم أن تبحثوا عن بقية روايات ومغامرات هذه السلسلة . . إن الناشئين مثلكم فى كل بلدان العالم سبق لهم أن قرأوها واستمتعوا بها ، وأنتم فى منافسة معهم . ولا سبيل لأن تتفوقوا عليهم مالم تتابعوا هذه الأعمال الكبيرة . الخالدة . التى ترجمت إلى كثير من لغات الدنيا . وها هى ذى ميسرة لكم ، منقولة إليكم فى لغة عربية ، سلسلة ، جميلة ، سهلة .

رقم الإيداع	١٩٨٠/١٦٢٩
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٩١٥- X

١/٨٠/٨١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)